مَجَلَّةُ الِاسْتِيعَــابِ
Issn : 2661-7625 Eissn : : 2773-3947
المجلد: السّــادس / العـدد: الأوّل ص14-35

محمد العربي التباني السطيفي.. قراءة في كتاب براءة الأشعريين من عقائد المخالفين.

Muhammad al-Arabi al-Tabani al-Satifi.. Read in the book Innocence é& of the Band of Poets from the Faiths of Violators.

خليل شايب

[1] جامعة الأمير عبد القادر (الجزائر)،ikhalil1989@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/10 تاريخ القبول: 2024/03/03 تاريخ النشر: 2024/03/26

ملخص:

مرت السنوات على الأمة الإسلامية وظهر إلى السطح وبدافع سياسي بشكل رئيسٍ الصراعُ السنّي الشيعي، ثم الصراع بين الأشاعرة والسلفية وظل الفرقتين الأشعرية والسلفية بين هدنة وصراع إلى نهايات القرن السابع وبدايات الثامن للهجرة، حيث ظهر ابن تيمية ثم تلميذه ابن القيم من جهة وأعلام الأشاعرة السبكي وابن مخلوف وابن حجر العسقلاني من جهة أخرى، حيث زادت احتدمت المواجهة فكثرت المناظرات و الردود و الرسائل وانتهى الأمر برجوع ابن تيمية إلى رحاب المدرسة الأم وتراجعه عن آرائه.

خمدت نار التنازع لكنها لم تنطفئ، بل عادت للتأجج عندما عُقد القران السياسي الديني بين محمد بن سعود آل مقرن مؤسس الدولة السعودية الأولى ومحمد ابن عبد الوهاب محيي المدرسة الحشوية وشيخ الوهابية، وبهذا أصبح الحشْوُ عقيدة الدولة الـمُمَثّلة للإسلام والحاضنة لأشرف البقاع، وصار تصديره إلى العالم مهمة رجال الدين المدعومين سياسيا.

ظل المغرب العربي في العموم بعيدا عن هذا الصراع، حيث كان الفرد المغاربي بصفة عامة والجزائري بصفة خاصة مُحصّنا بالمذهب المالكي مقرونا بعقيدة أبي الحسن الأشعري وطريقة أبي القاسم الجنيد، في تجسيد فِعليّ لحديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، لكن بحكم الدعم السياسي والإعلامي والمادي بدأت الحشوية تجد طريقها إلى الجزائر كما وجدت موطئ قدم في كثير من الدول الإسلامية، فانبرى لفيف من العلماء لنقض عقائدها وبيان زيفها وخطئها، لعل أبرزهم الشيخ محمد العربي التباني

السطيفي، في كتابه براءة الأشعريين من عقائد المخالفين؛ فما هو موقفه من هذه الفرقة؟ وما هو المنهج المُتّبع في الرد عليها؟.

كلمات مفتاحية: محمد العربي التباني، الأشاعرة، الوهابية، الحشوية، التجسيم، التوسل

Abstract

Years have passed since the Islamic Ummah, mainly politically motivated, the Sunni Shia conflict has emerged. Then the conflict between poets and Salafism emerged and was between the armistice and conflict until the end of the seventh century and the beginnings of the eighth migration, where the son of Temia appeared and then his disciple the son of values on one side and the flags of the Sabki poets, the son of Makhlouf and the son of the Askalani stone on the other. Confrontation intensified, discussions, replies and letters abounded and Timiya's son ended up returning to the mother school and retracting his views.

The conflict was put down but not put down. It resurfaced when the religious political union concluded between Mohammed bin Saud al-Mukran, the founder of the first Saudi state, Mohammed bin Abdulwahab Mahiyat.

In general, the Maghreb remained far from this conflict, with the Moroccan individual in general and Algeria in particular being immune from the Maliki doctrine in conjunction with the Abu al-Hassan al-Ashari faith and the Abu al.

Keywords: Muhammad Al-Arabi Al-Tabani, Al-Achaira, Al-Wahhabiyah, Al-Hishwiyah

[1]**المؤلف المرسل** خليل شايب،ikhalil1989@gmail.com

1. مقدمة:

أسفرت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، بالإضافة إلى الصراع المُحتدم على السلطة سواء في العهد الرّاشدي أو حتّى ما تبعه من عهود، زد على ذلك انتقال الإسلام من مرحلة الرّوح –مرحلة التلقّى

والتّسليم الـمُطلق بما جاء به الدين الجديد- إلى مرحلة العقل -مرحلة التمحيص والنّقد-.. إلى ظهور العديد من الفرق، كلّ واحدة وبمنطق "الأنا الناجية" تنسب نفسها للنبي وصحبه، وتتدثّر بمسمّى الفرقة الناجية، وتنعت كل مخالف بالكفر وتقطع له تذكرة إلى قعر الجحيم.

ظهر إلى السطح -والحال هذه-، وبدافع سياسي بشكل رئيسٍ الصراعُ السنّي الشيعي، رغم أن الصراع داخل كل فرقة كان في كثير من الأحيان أكثر احتداما؛ ويكفي أن نذكر الصراع بين المدرسة الأشعرية والمدرسة السلفية أو بتعبير دقيق المدرسة الحشوية (ابن عساكر، 2013، صفحة 20) للتدليل على ذلك.

ظل الصراع بين الفرقتين الأشعرية والسلفية بين هدنة وصراع إلى نهايات القرن السابع وبدايات الثامن للهجرة، حيث ظهر ابن تيمية ثم تلميذه ابن القيم من جهة و أعلام الأشاعرة من جهة أخرى السبكي وابن مخلوف وابن حجر العسقلاني من جهة أخرى، حيث زادت احتدمت المواجهة فكثرت المناظرات و الردود و الرسائل وانتهى الأمر برجوع ابن تيمية إلى رحاب المدرسة الأم وتراجعه عن آرائه (ابن حجر العسقلاني، 1349، الصفحات 145-146).

خمدت نار التنازع لكنها لم تنطفئ، بل عادت للتأجج عندما عُقد القران السياسي الديني بين محمد بن سعود آل مقرن مؤسس الدولة السعودية الأولى ومحمد ابن عبد الوهاب محيي المدرسة الحشوية وشيخ الوهابية، وبهذا أصبح الحشْوُ عقيدة الدولة الـمُمَثّلة للإسلام والحاضنة لأشرف البقاع، وصار تصديره إلى العالم مهمة رجال الدين المدعومين سياسيا.

ظل المغرب العربي في العموم بعيدا عن هذا الصراع، حيث كان الفرد المغاربي بصفة عامة والجزائري بصفة خاصة مُحصّنا بالمذهب المالكي مقرونا بعقيدة أبي الحسن الأشعري وطريقة أبي القاسم الجنيد، في تجسيد فِعليّ لحديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ قال ابن عاشر:

في عِـقْـدِ الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الـجُـنَـيْـدِ السَّالِـك (أحمد ميّارة الفاسي ، 2008، صفحة 18)

لكن بحكم الدعم السياسي والإعلامي والمادي بدأت الحشوية تجد طريقها إلى الجزائر كما وجدت موطئ قدم في كثير من الدول الإسلامية، فانبرى لفيف من العلماء لنقض عقائدها وبيان زيفها وخطئها، لعل أبرزهم الشيخ محمد العربي التباني السطيفي، في كتابه براءة الأشعريين من عقائد المخالفين؛ فما هو موقفه من هذه الفرقة؟ وما هو المنهج الـمُتّبع في الرد عليها؟.

للإجابة عن هذه التساؤلات و غيرها نضع الخطة التالية:

- محمد العربي التباني.. قراءة في النشأة والتكوين.
- نقض تشبيه المخلوق بالخالق.
- الرد على تقسيم التوحيد إلى قسمين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.
- الرد على عدم توقير الجناب النّبوي.
- الرد على توسّع الوهابيّة في تكفير المسلمين.

2. محمد العربي التباني، قراءة في النشأة والتكوين:

هو أبو عبد الله محمد العربي بن التبّاني بن الحسين الواحديّ السطيفي المكيّ الحسنيّ المالكيّ، يتصل نسبه بالشيخ عبد السلام بن مشّيش الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، سبط النبي صلّى الله عليه وسلّم (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 133).

لُقّب بأستاذ الأجيال لأنه قضى مدّة طويلة في التدريس بمدرسة الفلاح بمكة فاقت الخمسين سنة، كما لُقّب بإمام الحرمين لأنه اشتغل بالتدريس بالحرم المكيّ وبالمسجد النبوي، بالإضافة إلى خادم العلم بأم القرى، وخاتمة اعتقاد أهل الأديان (خير الدين شترة، 2016، صفحة 281)..

ولد الشيخ العربي التباني بقرية راس الواد من أعمال سطيف بالجزائر سنة حوالي 1897-1898 م، تعليمه الأول في قريته، حيث حفظ القرآن الكريم وعمره اثنا عشر عاماً، وحفظ معه بعض المتون الصغار مثل الأجرومية والعشماوية والجزرية وقد تلقى هذه العلوم وهو في كفالة والده (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 133).

تأتي بعدها مرحلة الاستزادة من العلم الشرعي، حيث تلقى المبادئ الأساسية في العقائد والنحو والفقه على يد عدة علماء لعل أبرزهم خاله الشيخ السعيد بن الطاهر بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن العيساوي مؤسس زاوية الشيخ بن العيساوي براس الواد، والشيخ عبد الله بن القاضي اليعلاوي.. يختم هذا

المرحلة من عمره وقد استوفى أغلب المتون العلمية الموجهة للمبتدئين (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 133).

المرحلة الموالية هي مرحلة الترحال من أجل طلب العلم، وتبدأ وهو في سن السابعة عشرة من عمره، حيث شدّ الرحال –بعد استئذان خاله– إلى تونس، ومكث بالزيتونة عدّة أشهر درس أثناءها على أيدي بعض مشايخ جامع الزيتونة المشهورين في الفقه والنحو والصرف والتجويد أداءً وقراءةً (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 134).

توجه إلى المدينة المنورة، حيث لازم فيها كبار العلماء خاصة المالكية، ومنهم العلامة أحمد بن محمد خيرات الشنقيطي التندغي وقرأ على يديه الدردير على مختصر خليل، وأيضاً الرسالة البيانية وسيرة ابن هشام والمعلقات السبع وديوان النابغة وسنن أبي داود؛ بالإضافة إلى العلامة حمدان بن أحمد الونيسي وهو شيخ العلامة عبد الحميد ابن باديس في قسنطينة، فقرأ على الشيخ حمدان تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل . (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 134)

كما درس على الشيخ العلاّمة محمد العزيز بن محمد الوزير الذي قرأ عليه جزءا من موطّأ الإمام مالك بشرح الإمام الزرقاني، ومختصر خليل في الفقه المالكي، وألفية مالك بشرح الأشموني في اللغة..؛ بالإضافة إلى اللغوي المعروف محمد محمود الشنقيطي (محمد العربي التباني، 1956)

عزم بعد ذلك إلى الشام حيث مكث فيها شهوراً، وكان يتردّد على المكتبة الظاهرية، وأحياناً على دار الحديث الأشرفية؛ يمّم بعدها من دمشق صوب أمّ القرى مكة المكرمة فدخلها شهر رجب عام 1336هـ؛ هناك بدأ بالدراسة والحضور في حلقات العلم بالمسجد الحرام، حيث أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الدهام دروساً في فنون شتى فقرأ عليه شرح زكريا الأنصاري وأخذ عن الشيخ مشتاق أحمد الهندي (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 135).

كان رحمه الله كثير الترحال، حيث توجه عام 1924 إلى أندونيسيا وقابل فيها السلطان اسكندر شاه الذي أجزل له العطاء وأكرمه لما رأى فيه من علم وورع، واستغل السانحة ليستشيره في حكم لبس البرنيطة وزواج المسلمة بالكافر، فألف رسالة في التحذير من لبس البرنيط، وتحريم زواج المسلمة من الكافر؛ كما زار

فلسطين والشام والهند وزنجبار والسودان.. كما زار بلده الجزائر بعد الاستقلال ثلاث مرّات (خير الدين شترة، 2016، صفحة 283).

وفي عام 1929م عين مدرساً بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، ونظراً لتفوقه ونبوغه فاشتغل بالتدريس تحت أروقة الحرم المكي الشريف بباب الزيادة ثم بحصوة باب العمرة "بين بابي الباسطية والزيادة"، بين المغرب والعشاء، فتنوعت حلقه بين الحديث والتفسير والأصول والبلاغة والتاريخ الإسلامي (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 137-140).

وقد كان برنامجه التدريسي كثيفا، فقد كان يدرس في الحرم خمس ليال في الأسبوع إلى جانب الدروس التي كان يلقيها بمدرسة الفلاح، وبعد ذلك اختصر دروسه على ليلتي الجمعة والسبت في الحرم المكي حيث كان يدرس الجامع الصغير للحافظ السيوطي والسيرة مع الاستمرار في التدريس في منزله لكبار الطلبة يومياً من الضحى إلى الظهر ثم في المساء يدرس في شتى الفنون.

بعد مرض شديد أقعده الفراش وانقطع فيه عن الكلام، انتقل إلى الرفيق الأعلى في السابع والعشرين من شهر ماي عام 1970 بمكة المكرمة، وصُلّي عليه بالمسجد الحرام، ودُفن بمقبرة المعلاة، ودُفن بجوار قبر أسماء بنت أبي بكر الصدّيق (خير الدين شترة، 2016، صفحة 286).

3. قراءة في كتاب براءة الأشعريين من عقائد المخالفين:

وهو كتاب في أصول الدين، ألّفه في الانتصار لمذهب أبي الحسن الأشعري، والردّ على الوهابية الحشوية، ويذهب العلاّمة محمد العربي التبّاني في هذا السِّفْر الجليل إلى أن أمّهات عقائد الحشوية منحصرة في أربع مسائل كبرى تنضوي تحت كلٍّ منها قضايا فرعية تبعية، وهي كالآتي:

أ- تشبيه المخلوق بالخالق.

ب-تقسيم التوحيد إلى قسمين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

ت-عدم توقير الجناب النّبوي.

ث-توسّعهم في تكفير المسلمين.

إضافة إلى أن الوهابية يحصرون الدين في مجموعة من المشايخ (ابن تيمية، ابن القيم، محمد بن عبد الوهّاب) ، وكل من خالفهم كالوا له العداء ونعتوه بالكفر والزندقة (التباني أبو حامد بن مرزوق، ، الصفحات 2-3).

ثم يأتي إلى تفصل ذلك في كتابه براءة الأشعريين من براءة المخالفين، الذي جاء في مجلّدين يقع الأول في 336 صفحة تتوزّع بين ثلاثة فصوب لمناقشة قضية التشبيه وقضية تقسيم التوحيد وعدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم، أما الثاني فيحوي 311 صفحة عرض فيها وناقش المحور الباقي في فصل مستقل.

1.3مسألة التشبيه ومنهجية النقض:

يرى الشيخ أن أصل التجسيم الموجود عند الوهابية ومجسّمة الحنابلة مُستمد من فرقة الكرّامية (عبد القاهر البغدادي، 2009، الصفحات 161-167) ومؤسّسها

محمد بن كرّام السجستاني، واستناد هذه الأخيرة ومن بعدها الحشوية كان على مجموعة من الآيات والأحاديث التي فيها إيحاءُ تشبيهٍ للخالق بالمخلوق مثل: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) ، (**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ**) ، (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**) ، (**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**).. وكثير من الأحاديث منها: "حتى يضع فيها الرحمن قدمه"، "زوّجني الله من فوق سبع سماوات".. وغيرها كثير.

وعلى خلاف الشائع في كتب الرّدود، فإن العلاّمة ابن التبّاني يلتزم الأمانة العلمية، ويرجع إلى كتبهم ويورد كثيرا من الكلام المُثبت فيها للتدليل على ما يقول، بالإضافة إلى إيراد عديد الوقائع والأحداث مُـوثّـقةً بعنوان الكتاب والصفحة، مستندا في ذلك على ثلاث كتب أساسية هي: كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و كتاب: النقض على بشر المرّيسي لعثمان بن سعيد الدارمي، وطبقات الشّافعية لأبي يعلى الفرّاء؛ ومما أورد عنهم من تجسيم وتشبيه ننقُل بإيجاز واختصار:

– ما ورد في كتاب السنّة لعبد الله بن أحمد بن حنبل: أرسل ابن عمر إلى ابن عباس يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فأرسل إليه ابن عباس: أن نعم، قال : فرد عليه ابن عمر رسولَه أن كيف رآه؟، قال: رآه على سرير من ذهب يحمله أربعة من الملائكة، مَلَكٌ في صورة رجل، ومَلَكٌ في صورة ثور، ومَلَكٌ في صورة أسد، ومَلَكٌ في صورة نسر في روضة خضراء دونه فراش من ذهب.

– إن الله لم يمس شيئا بيده إلا آدم خلقه بيده والجنة، والتوراة كتبها بيده، قال ودُمْلُجُ الله لؤلؤة بيده (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 8-9).

ومما أورده نقلا عن كتاب: النقض على بشر المرّيسي لعثمان بن سعيد الدارمي:

– الحي القيوم يفعل ما يشاء، ويتحرّك إذا شاء، وينزل ويرتفع إذا شاء، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء، لأن أمارةَ ما بين الحي والميتِ التحركُ، فكل حيّ متحرّك لا محالة، وكل ميّت غير متحرّك لا محالة؛ و أنه يقعد –

يقصد الله تعالى- على الكرسي فما يفضُل منه إلا قدر أربع أصابع (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 12-13).

ومما جاء في طبقات أبي يعلى الفرّاء:

– تفسير قوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربّك مقاما محمودا) بقوله: إن المقام المحمود هو قعوده صلى الله تعالى عليه وسلّم مع ربّه على العرش (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 28-31).

– ومن غُلُوّ أبي يعلى الفرّاء في الإمام أحمد رضي الله عنه: لأن أخرّ من السماء إلى الأرض أحب إليّ من أزول عن مذهب أحمد بن حنبل، ثم نقل الشيخ السطيفي البيت المنسوب لأحد الحنابلة:

أنا حنبليّ ما حييتُ، فإن أمُتْ فوصيّتي للناس أن يتحنبلوا (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 50)

ومن القصص التي يرويها عن ابن تيمية:

ما ذكره الرحّالة ابن بطّوطة عن شرح ابن تيمية لحديث النزول: وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته (أي ابن تيمية) يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 154).

وبعد أن ذكر ما ذكر، ونقل ما نقل، وسرد تاريخهم ودسائسهم وفتنهم عبر التاريخ انتقل إلى نقض عقيدة التجسيم نجملها في النقاط الآتية:

و– إن التجسيم عقيدة يهودية خالصة، إذ ثبت بنصوص القرآن أنهم أمّة غارقة في المادية، أمّة لم تستصغ التجريد وأرادت أن تجسم الإله في العهد الموسوي، قال عزّ وجلّ: (قالوا أرنا الله جهرة)، وقال: **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)**، فلما انقضى العهد الموسوي جسّدوا عقيدة التجسيم في كثير من معتقداتهم كما هو مثبت في التوراة والتلمود؛ وبما أن الإسلام هو الدين الخاتم المُهيمن فإنه جاء ليصحح تلك المادية وينفي عن الله تعالى كل الصفات التي تشبّه بمخلوقاته.

ب– إنّ الله تعالى كامل لا تلحقه صفات النقص، قال تعالى: ***(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)*** ، وجاء عن الإمام أحمد: "ما ورد من الله تعالى ومن رسوله فليُعرض على لغة العرب التي أرسل الله تعالى محمدا بلغتها، قال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** ، فما فهمت العرب فافهمه ومن جاءك بما يخالفه فانبذ كلامه نبذ الحذاء المرقّع"، وهذا دليل صريح على أن أحمد بن حنبل كان على التفويض، أي الإمرار من غير إثباتٍ مفضٍ للتشبيه والتجسيم، ثم إن الرواية المشهورة المنسوبة لمالك بن أنس في الاستواء: "الاستواء معلوم والكيف مجهول.." رواية منكرة، بل الرواية الصحيحة هي التي ذكرها البيهقي في شعب الإيمان بإسناد صحيحٍ وفيها: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم أمر بالرجل فأخرج"، وأكبر دليل على صحّتها أن منهج مالك رحمه الله تعالى إمرارها كما جاءت وتفويض أمرها لله تعالى (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 74-76-77).

جـ– ما جاء من آيات وأحاديث موهمة للتشبيه والجسمية أو للجهة والتحيّز أو لجريان صفات المخلوقات على الخالق، فإن الأحاديث كلّها أحاد حتى وإن صحّ متنها فإنّه لا يستقيم أن يُستدلّ بها في العقائد، وحتى وإن سلّمنا جدلا بصحتها وتواترها فإنها –كما آياتُ التشبيه– لا تُحمل على ظاهرها بل تُفوّض محمولات معانيها إلى الله عزّ وجل، أو تؤوّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلة العقلية وجرى عليه الاستعمال اللغوي عند العرب، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة: (لا يعلم تاويله إلا الله والراسخون في العلم)، قال صاحب جوهرة التوحيد:

وكلّ نصٍ أوهم التشبيهَ أوّلْهُ أو فوّض ورُم تنزيها (اللّقّاني، 2004، صفحة 103)

ثم إن نزول الآيات بما فيه شيء من التشبيه الظاهر جاء لأن عقول العامة بعيدة عن التجريد لدرجةٍ أنها تكاد تجزم بنفي ما ليس في جهة، فكان الأنسب في مخاطبتهم والأنفع إلى دعوتهم والأقرب إلى صلاحهم أن يكون ظاهر الآيات تشبيها وباطنها تنزيها.

د– اتفق العقلاء من أهل السنة الشافعية والحنفية والمالكية وفضلاء الحنابلة على أن الله تبارك وتعالى منزّه عن الجهة والجسمية والحد والمكان ومشابهة المخلوقات.

هـ– ثم يأتي للرد على حجّتهم العقلية القائلة: إن كل موجود إما أن يكون جسما أو حالّا في جسم، وواجب الوجود يستحيل أن يكون حالا في جسم لاحتياجه، وبالتالي يتعيّن كونه جسما؛ فإذا تقرر أنه جسم فإنه إما أن يكون داخل العالم أو خارجه، فإن كان داخله ثبت التحيُّزُ، وإن كان خارجه كان في جهة منه وهو ما يستوجب الجهة؛ يذهب للرد على ذلك –مستعينا برأيي سعد الدين التفتازاني و حجة الإسلام الغزالي– بالقول أن المنع كيفٌ وليس تركيبا على الشيء ونقيضه أو المساوي لنقيضه، فالمناطقة على أن الموجود إما جسم أو جسماني، أو ليس بجسم ولا جسماني، ومنه يكون القول بالانحصار في قسمين من الأحكام الكاذبة ودعوى قائمة على العناد والمكابرة أو ربّما على أن الوهميات تكون نتيجة للمسلّمات الخاطئة (اللّقّاني، 2004، الصفحات 79-89).

و– إن اتفاق البشر على وجود الخالق في أشرف الجهات لا يستلزم وجوده حقيقة فيها، فالتوجّه للسماء ليس دليلا على حلول الذات العلية بها، وإنما رفعه تعالى لأشرف الجهات، إذ السماء قِبلة الدعاء ومنها تتنزل الخيرات والبركات وتهبط الأنوار والأمطار، لاحظ أننا نتوجّه بالصلاة إلى الكعبة وليس هو في جهة الكعبة اتّفاقا، وينسحب الأمر على السجود إذ هو ليس تحت الأرض؛ إن الحيّز عند المناطقة حسبه هو الذي يختصّ الجوهر به، ولا يصير الحيّز جهة إلا أُضيف إلى متحيّز، وهنا لسائلٍ أن يقول: إنّ نفي الجهة يقود إلى إثبات موجود تخلو منه الجهات فيكون لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متّصلا به ولا منفصلا عنه.

2.3تقسيم التوحيد والردّ عليه:

بعد نفي التشبيه عن الخالق تبارك وتعالى، توجّه العلاّمة محمد العربي التباني لبيان حقيقة تقسيم التوحيد والردّ عليه، فبدأ بنسبة هذا التقسيم إلى ابن تيمية ونفيه عمن سبقه من عموم الأمة، لينقُل تعريفات كل قسم على حده:

فتوحيد الربوبية عندهم هو: عني الإقرار بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو ربّ كل شيءٍ ومليكه، وأنّ الله هو الخالق والرازق والمحيي والمميت والنافع والضار، والمتفرّد بإجابة دعاء المضطرين، والإقرار أيضاً بأنّ الأمر كلّه لله، وأنّه بيده الخير كلّه، وأنّه القادر على ما يشاء، وليس له في ذلك أي شريك أو نظير (اللّقّاني، 2004، صفحة 89) (سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، صفحة 33)، قال ابن تيمية: "هو أن لا مُعطي إلا لما منع الله ولا مانع لما أعطاه، ولا يُتوكّل عليه ولا يُسأل إلا هو" ويرى أن هذا التوحيد وحده لا ينفي الكفر ولا يكفي للنجاة من استحقاق العقاب الإلهي يوم القيامة (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 94-95)؛ وهذا النوع حسبهم يقرّ به جميع البشر، بل إن مشركي قريش يعتبرون عندهم من الموحدّين لله في ربوبيته.

أما توحيد الألوهية فهو: إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، يقول ابن تيمية: "وأما توحيد الربوبية فيدخل ما قدّره وقضاه (...) والعبد مأمور بأن يعبد الله ويفعل ما أمر به وهو توحيد الإلهية" (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 97)؛ ويرى العلامة محمد العربي بن التباني أن هذا التقسيم هو الذي فتح الباب واسعا أمام تكفير المسلمين وإسقاط آياتٍ نزلت في المشركين على المسلمين، فاستباحوا أموالهم وأعراضهم وأعملوا فيهم السيف..

وقد رصف –رحمه الله– اثنين وثلاثين مسألة ينقض هذا التقسيم ويبّن خطأه وزيفه وخطره، نجملها في مجموعة من النقاط كالآتي:

3- إن القرآن في مواضع مختلفة يكتفي بإحداهما عن الآخر، ويرتّب اللوازم المستحيلة على انتفاء أي منها ليستدل بانتفائها على ثبوته، قال تعالى: **(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) ، استخدم الله تعالى لفظ الإله مع أن سياق الآية خاص بمستلزمات الربوبية –الخلق–؛ ومنه أيضا قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) ، وقال أيضا في مجادلة إبراهيم عليه السلام للنمرود: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ، فاستدلّ الخليل على ألوهية الإله الحق بلازمة من لوازم الربوبية فدحض دعوى استحقاق**

العبادة.. ومما سبق يظهر أن المنهج القرآني لا يفرّق بين التوحيدين ولا يفصل بينهما، بل هما متلازما لا يوجد الأول إلا بتحقّق وجود الثاني.

لكن لقائل أن يستفسر: ما رأيك في قوله تعالى: *(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)*؟، يجيب إمام الحرمين التباني: إنهم لم يُخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره كأنهم يعلّلون ذلك بقولهم ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله تقريبا، وتبريرهم فيه كفران نعمة المنعم تعالى، إذ العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام وهو الله تعالى، وبالتالي يكون الاشتغال بعابدتها كفرا وتبريرا خاطئا يتهرّبون به من التوحيد الصحيح، ثم إن الله عزّ وجلّ ما ذكر تعليلهم ليُشير إلى أن العلة خاطئة، وأن حقيقتها هي العُدول بها عن خالقهم المستحق لها ووضعهم الشيء في غير محلّه، لذلك ختم الآية نفسها من سورة الزمر بقوله: ***(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)*** *(محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 160-161).*

ب- جاءت الأحاديث مستفيضة في تطابق التوحيدين واعتبارهما واحدا، منها قوله صلي الله عليه وسلم: "يأتيه ملكان فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان: ما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت به فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من طيبها وروحها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.." (أبو داود، 4753)، فلو كان المشركون فعلا موحّدين توحيد الربوبية لاستطاعوا أن يجيبوا عن السؤال عن ربهم، إذا كانوا مقرّين به حقّا؛ ولمّا بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى أهل اليمن قال: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن أطاعوك لذلك فأخبرهم أن عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة" (أبو داود، 3592) ؛ كما أن قصّة قتل أسامة بن زيد لمن نطق بالشهادة ما جاء فيها اعتراضٌ على تعنيف النبي وعتابه بأنه عنى بها توحيد الربوبية وهو غير كافٍ لدخول الإسلام (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 92-97).

جـ– وإذا تقرر انتفاء هذا التقسيم من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهما أصلا التشريع في الإسلام، فإنّه لم يقل به واحد من الصحابة ولا من التابعين أو تابعي التابعين وهي العصور الثلاثة المشهود لها بالفضل والخيرية، بل إن الإمام أحمد الذي يزعم أنه ينتسب إليه –والكلام للشيخ التباني– لم يقل به.

د– إن الإيمان تصديقٌ الجازم بما عُلِمَ مجيء النبي به، وأن العبادة إتيانٌ بأقصى الخضوع قلبا وقالبا، فهي إذا قلبية وقالبية؛ فالقلبية هي اعتقاد الربوبية أو خصيصة من خصائصها –النفع والضر ونفوذ المشيئة مثلا– لا محالة خالصة للرب، والقالبية هي الإتيان بأنواع الخضوع الظاهرة من قيام وركوع وسجود وغيرها متساوقة مع الاعتقاد القلبي، فإن جاء بواحد منها دون ذلك الاعتقاد لم يكن خضوعه عبادة ولو كان سجودا؛ حتى أن السجود للصنم ليس كفرا من حيث ذات بل لو كان كفرا لما حلّ في شريعةٍ قط؛ لكنه ثبت في سجود يعقوب وبَنِيه ليوسف وسجود الملائكة لآدم، إذا فهو ليس كفرا وإنما هو من الفحشاء.

هـ– من الأمور التي لا تحتاج دليلا، أن من ثبتت له الربوبية فهو للعبادة مستحقٌ، ومن انتفت عنه انتفى عنه الاستحقاق، إنهما متلازمان فيما شرع الله في شرائعه وفيما وَضع في عقول الناس؛ وبالتالي يكون القول بتوحيد المشركين توحيدَ الربوبية باطل، فمن منطلق الشراكة في الألوهية بَنى المشركون استحقاق العبادة لغير لله، فما دام في نفوسهم اعتقاد الربوبية لغير الله استتبعه استحقاق العبادة، فالثانية–العبادة– مبنية على الأولى –توحيد الربوبية– ملازمة لها لا تنفك إحداهم عن الأخرى، فمن أقرّ أنه لا رب إلا الله كان مقرا بأنه لا يستحق العبادة غيره، وهذا هو معنى لا إله إلا الله أي لا خالق ولا معبود مستحق للعبادة إلا هذا الخالق المصور المحيي المميت..

و– مفهوم الشرك عند الفقهاء مُغاير لما يطرح الوهابية؛ فأَشْـرَكَ بالله لغويا بمعنى كَفَرَ فهو مشرك ومُشْرِكِيٌّ.. والشرك ينقسم إلى باعتبار متعلّقه إلى ستة أنواع:

– شرك الاستقلال: وهو إثبات إلهين مستقلّين، كشرك المجوس الذين جعلوا الحكم لربّين، إله للنور وإله للظلمة.

– شرك التبعيض: وهو تركيب الإله من آلهة متعددة، كشرك النصارى.

– شرك التقريب: وهو عبادة غير الله ليُقرّبه إلى الله زلفى، كشرك متقدّمي الجاهلية.

– شرك التقليد: وهو عبادة غير الله تبعا للغير، كشرك متأخري الجاهلية.

– شرك الأسباب: وهو إسناد التأثير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبيعيين.

– شرك الأغراض: وهو العمل لغير الله أو الرياء.

وقد أجمع الفقهاء على أن الأنواع الأربعة الأولى كُفر، وأما النوع الأخير فصاحبه عاصٍ مسلم، أما الخامس فإن كان معتقدا أن الأسباب تؤثّر بطبيعتها فهو كافر، ومن اعتقدها أسبابا عادية تؤثّر بقوة إلهية مودعة فيها قبلا فهو مسلم (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 165)؛ فإذا تقرّر ذلك بطل هذا التقسيم جملة وتفصيلا.

3.3عدم توقير الجناب النبوي:

وبعد أن بيّن خطأهم في تقسيم التوحيد نقلا وعقلا، انتقل إلى الفصل الثالث الذي عنونه: في عدم توقيرهم النبي صلّى الله عليه وسلّم؛ وتوقير النبي صلى الله عليه وسلّم –حسبه– من الإيمان، جاء في الحديث: "لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليهِ من والدِه وولدِه والناسِ أجمعينَ" (مسلم، 92)، فمن لم يعظّمه بما يليق بمقامه كفر، ومن رفعه مقال الألوهية هو كافر.

و عدم احترام الوهابية للجناب النبوي كان في عدة منها: منع الاحتفال بمولده، ومنع تسويده –قول سيّدنا محمد–، والحكم على أبويه بالتخليد في النار، تحريم زيارة قبره والتوسّل به؛ وسنقتصر في هذا العرض على ذكر مسألتين لانتشارها الكبير بين سكان المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا، أولاهما فتحت باب التفسيق والتبديع على مصراعيه، أما الثانية فقد كانت نتيجتها الحتمية تكفير المسلمين والحكم عليهم بالشرك ومعاملتهم على أنّهم ومشركوا قريشٍ سواء بسواء، هاتان المسألتان هما على الترتيب:

أ–منع شدّ الرحال إلى قبره:

حرّم الحشوية –أو التيميّون كما يسمّهم الشيخ التباني– زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلّم وشدّ الرحال إليه، وحرّموا قصر الصلاة في السفر إليه؛ يرى ابن تيمية أن زيارة قبر الرسول الله محرّمة مستندا إلى الحديث: "لا تُشدّ الرحال إلا إلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا" (البخاري، 1186)، وبالتالي فزيارة القبر نوع من شدّ الرحال لغير ما ذكره الحديث ومنه فهو معصية، ثم نقل إجماع العلماء على أنه لا يجوز القصر في سفر معصية؛ أما حديث: "من حجّ ولم يزرني فقد جفاني" (الألباني، 1992، صفحة 45)، وحديث: "من زارني بعد موتي كمن زارني في حياتي" (الألباني، 1992، صفحة 120)، فهي أحاديث ضعيفة حسبه ولا يصح الاستدلال بها، بالإضافة إلى أنه صلى الله عليه وسلم: "لا تجعلوا قبري عيدا"، وبالتالي تحرم الزيارة ويؤثم الزائر، بل إنه إن نذر الزيارة فإنها النذر ساقط ولا شيء عليه (محمد

العربي التباني، 1956، الصفحات 214-218). و الظاهر أن قولهم هذا كان سدّا لذريعة الوقوع في التوسّل بالأموات المحرّم عندهم ما سيأتي .

و يردّ إمام الحرمين التباني بأن الزيارة قربة ثابتة بالقرآن والسنة وإجماع علماء الأمة:

– من القرآن الكريم: قوله تعالى: (***وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا***) ، فقد دلّت الآية على الحثّ على المجيء إلى رسول الله والاستغفار عنده، ولم تُقيّد الآية هذا المجيء بالحياة دون الموت، وهي خصيصة من خصائص النبي الخاتم لا تنقضي بعد موته ولم ترد قرينة تضبط النص بالحياة فقط، وقد جمعت الآية الكريمة بين ثلاث أمور: مجيء، ثم استغفار المذنبين الذين ظلموا أنفسهم، ثم استغفار الرسول، فإذا علمت أن استغفار الرسول واجب بالنصوص الدينية لكل مسلم ومسلمة (**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**) ، كان الإتيان هنا شاملا للحياة و بعدها ، فإن اجتمع الإتيان مع التوبة و الاستغفار وجبت رحمة الله تعالى .

– ومن الحديث: حتى إن سلّمنا جدلا بضعف الأحاديث المذكورة في فضل زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّح –وهو مُنْتَفٍ حسبه–، فإن عموم قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تُذكّركم الآخرة " (البخاري، 1278) يُثبت ذلك، إذ إن قبر النبي داخل في عموم القبور المأمور بزيارتها بل هو أشرف ما يُزار.

– أما الإجماع فنقله القاضي عياض في الشفاء، وقال إن زيارته صلى الله عليه وسلّم مطلوبة بالعموم والخصوص،

فتعظيمه واجب حيّا وميّتا، ولا فرق في زيارته بين النساء والرجال، فالإجماع على استحباب ذلك (القاضي عياض، 2013، صفحة 519).

– ومن القياس: فقد زار صلى الله عليه وسلّم البقيع وشهداء أحد، واستحب زيارة قبر غيره، فقبره أولى لما له من الحق ووجوب التعظيم (القاضي عياض، 2013، الصفحات 124-126-160-161-190-197).

ب– تحريم التوسّل به:

التوسّل لغة التقرّب، و الوسيلة كل ما يُتقرّب به إلى الله عزّ وجل، ويذهب التيميّون إلى أن التوسّل بدعة منكرة لا تصح، بل إنها شرك؛ فأسقطوا آيات نزلت في المشركين على غرار: (***مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى***

اللَّهِ زُلْفَى) ، على المسلمين الموحّدين وأعملوا فيهم السيف، قال ابن تيمية: وأما قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك بمحمد، فللعلماء فيه قولان كما لهم في الحلف به قولان، وجمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة على أنه لا يسوغ الحلف به كما لا يسوغ بغيره من الأنبياء والملائكة (القاضي عياض، 2013، صفحة 271).

وكان رد على العلامة محمد العربي بن التباني شبهاتهم كالآتي:

إن التوسّل ثلاث أنواع هي:

– أن يتوسل به: أي أن يطلب الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم أو جاهه أو بركته، وهو أيضا ثلاث حالات:

أ– قبل خَلْقِهِ صلّى الله عليه وسلم: وقد تواترت الآثار عن الأنبياء الماضين كانوا يتوسّلون به لله تعالى، من ذلك ما ذكر الحاكم في المستدرك: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لـمّا اقترف آدم عليه الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله تعالى يا آدم: وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه، قال يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تُضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحبّ الخلق إليّ وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك" (الحاكم النيسابوري، 2002، صفحة 672)، ويرى ابن تيمية أن هذا الحديث ليس له أصل، ولا نقله أحد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأنه حديث لا يصلح الاعتماد عليه ولا الاستشهاد به، لكن في واقع الأمر أن الحديث ثابت صحيح أخرجه الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائل النبوة والطّبراني، وقال الحاكم فيه: "وهذا حديث صحيح الإسناد" (الحاكم النيسابوري، 2002، صفحة 672)، بل يؤيّده بحديث آخر صحيح الإسناد لم يخرجه الشيخان هو: " أوحى الله إلى عيسى: يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولولاه ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله فسكن" (الحاكم النيسابوري، 2002، صفحة 672)، و بهذا ثبت أن التوسل بجاهه جائز حتى قبل أن يولد صلوات ربي و سلامه عليه (الحاكم النيسابوري، 2002، صفحة 259).

ب– التوسّل به بعد خَلقه: وهو ثابت بصورتين:

الأولى أن يُطلب منه الدعاء في حياته، وهذا قد تواترت الأحاديث والأخبار به، وهو الذي فصلنا القول فيه عند شرح قوله تعالى: ***(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)*** ؛ **أما الصورة الثانية: التوسّل به إلى الله تعالى**: فقد روى الترمذي أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: ادع الله أن يُعافيني، قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال فأمره أن يتوضّأ فيحسن وضوءه ويدعو الله بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي اللهم شفّعه فيّ" (الترمذي، 3578)؛ فإن اعترض أحدهم بحياته صلى الله عليه وسلّم ، يجيب التباني السطيفي: استعمل الحديثَ سيّدنا عثمان بعد موت الصادق المصدوق ولم يذكر التاريخ أن واحدا من الصحابة أو التابعين اعترض، ثم إن الحديث فيه تبيين للفعل ولو كان محرّما لدعا له الرسول مباشرة (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 262-263)

جـ- أن يُتوسّل به بعد موته: وهو محلّ تحريم عند التميين، وهذا النوع هو الذي جعلوها مشابها لفعل المشركين مع الأصنام، وبه كفّروا المسلمين واستباحوا دماءهم، رغم أنه ثابت بالقرآن والسنة والإجماع:

- من القرآن قوله تعالى: **(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)** ، قال ابن عباس: نزلت في يهود خيبر يقاتلون غطفان كلما التقوا هزمت غطفان اليهود، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق هذا النبي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان وألاَ نصرتنا عليهم، فصاروا إذا التقوا دعوا به فيهزمون غطفان، فلما بعث محمدا كفروا به فأنزل الله تعالى الآية، قال التباني: فمن منع التوسّل فقد أعلم الناس أنه أسوأ حالا من اليهود (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 273).

- ومن السنّة: أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له ائت مائضة فتوضّأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجّه بك إلى ربي في قضاء حاجتي، وتَذكرُ حاجتك ورُحْ حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه وقضى حاجته، ثم قال له ما ذكرتَ حاجتك حتى كان الساعة" قال تاج الدين السبكي: والاحتجاج من هذا الأثر لفهم عثمان رضي الله عنه ومن حضره، الذين هم أهل علم بالله ورسوله وفعلهم (محمد العربي التباني، 1956،

الصفحات 263-264) ومنه أيضا فعل أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقد جاء في الأثر أن قحطا أصاب المدينة فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي صلي الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا، فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتّقت من الشحم فسمي عام الفتق (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 265). والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة تشير كلّها إلى جوازه في حياته وبعد مماته، ولو خشي النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الشرك لمنعه في حياته، وما ذكر الأحاديث عن توسل الأنبياء به، بل ولحذّر منه لدعا الله أن يصرف قلوب أمته عن التوسّل، ولو كان محرّما ما فعله كبار الصحابة ولما اجتمعت الأمة على جوازه.

– ثمّ إن التوسّل مشروع، جائز لم ينكره أحد من أهل الملل ولم يقل أحد من علماء الإسلام قاطبة بتحريمه، بل حتى الحنابلة أنفسهم نصّوا في كتبهم على جوازه، قال ابن المفلح في الفروع: ويجوز التوسّل بالصالح وقيل يُستحب، وقال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي إنه يتوسّل بالنبي صلى الله عليه وسلّم في دعائه؛ وقال صاحب التلخيص: لا بأس بالتوسّل في الاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتّقين (محمد العربي التباني، 1956، صفحة 280).

4.3الردّ على التوسع في التكفير:

ولأن أهم خصيصة في الوهابية هي التكفير، عنون إمام الحرمين محمد العربي بن التباني الفصل الرابع من براءة الأشعريين بـ: تكفيرهم المسلمين ونبزهم بالشرك والقبورية والجهمية.

إن أخطر ما ابتليت به الأمة الإسلامية التوسّع في التكفير، إذ نشر الفُرقة وأشاع التشتّت بين أفراد الأمة التي جعلها الله عزّ وجل خير أمة أخرجت للناس، ورغم تواتر النصوص الشرعية في منع التكفير والتوسّع فيه مثل قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)** ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "من قذف مؤمناً بكفر فهو كقتله" (البخاري، 6047) وقوله: "إذا كفّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما" (مسلم، 215)؛ إلا أنه كان تاريخيا سلاحا مُشهرا في وجه كل مخالف حتى داخل النسق الفكر الواحد.. ويرى الشيخ محمد العربي التباني أن توسّع هذه الفرقة فيه فاق الخيال، بل أصبح تكفير المسلمين ونعتهم بالشرك و اتهامهم بالقبورية

والجهمية أسهل عندهم من شرب ماء الفرات، بل إن توسّعهم هذا طال حتى الصحابة الكرام، فقد نقل الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة عن ابن تيمية أمورا تسيء للصحابة الكرام وتطعن فيهم، من ذلك ما قاله في عمر بن الخطاب: إن عمر له غلطات وبليّات وأيُّ بليات، وعن علي كرّم الله وجهه: أخطأ عليّ في سبعة عشر موضعا خالف فيها نص الكتاب، وفي عثمان: إن عثمان كان يحب المال.. كما كفّر أتباع المذاهب الأربعة من المُقلّدين وشبّههم باليهود والنصارى في تفسيره لقوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)، كما كفّر بالتوسّل وزيارة القبر النبوي وقول يا رسول الله، وعدم الإتيان بالنية في العبادة وغيرها كثير ذكرها مولانا التباني مع توثيق الكتاب والجزء والصفحة (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 5-6).

وكان ردّه بنقض المسائل التي نعتوا من خلالها المسلمين فيها بالكفر وتبيان خطأ استدلالاتهم كما سبق، وقبل ذلك يذكّر بمفهوم الكفر وأقسامه حتى يتبيّن زللهم:

إن أصل الكفر: تغطية الشيء تغطيةً تستهلكه، وشاع استعماله في ستر النعمةِ خاصّةً، والكفر بمعنى ستَرَ الذي هو ضدّ الإيمان من باب نصر، ويتعدّى بالباء مثل: (فمن يكفر بالطّاغوت)، ويتعدّى بنفسه إذا كان ضدّ الشّكر.. والكفر حسبه أربعة أقسام:

– كُفر إنكار: بألاّ يعرف الله أصلا ولا يُقرّ بوجوده ولا يعترف به أصلا، بمعنى أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يُذكر له من التوحيد.

– كفر جحود: وهو أن يعرف الله و يعلم بأحكامه وتشريعاته ثم ينكر، أي أن يتعرّف بقلبه ولا يقرّ بلسانه، مثل كفر إبليس وأميّة بن الصلت.

– كفر معاندة: هو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يدين به، وهذا يشبه كفر أبي جهل ومن على شاكلته.

– كفر نفاق: وهو أن يُقرّ بلسانه وعدم الاعتقاد بالقلب كالمنافقين الذين كانوا في عهد النبي عليه السلام.

فإذا تقرر ذلك، فإنه –الكفر– لا ينقسم لذاته وإنما ينقسم باعتبار متعلّقه؛ فمن لقي ربّه بواحد من الأربعة لم يُغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (محمد العربي التباني، 1956، الصفحات 164-166)؛ وهو في الغالب قضيةٌ قلبية خالصة لا تظهر إلا في أحايين قليلة، فرميُ المسلمين به أكبر الكبائر التي وقعت فيها هذه الفرقة، ونصّبت نفسها مسؤولة عمّا في صدور الناس فقتّلت وسبت وأراقت الدّماء في قضايا لم يتمّ تأصيلها بالشكل الصحيح، وقد تمّ ردّها في الشيخ محمد العربي في هذا الكتاب الجليل.

5. خاتمة:

يمكن أن نخلص مما سبق طرحه إلى مجموعة من النقاط، نُجملها فيما يلي:

الاهتمام برجالات الجمعية دون غير جعلنا نغفل عن جهود وإنتاج علماء كبار في تاريخ الجزائر المعاصر، أمثال محمد العربي بن التباني، ومحمد المبارك، والشيخ طاهر الجزائري..

حافظ الشيخ محمد العربي التباني على مرجعيته الجزائرية (عقيدة الأشعري، فقه مالك، وطريقة الجنيد في التصوّف) رغم انتسابه لمدرسة الفلاح، والمنهج الوهابي الذي تتبناه المملكة العربية السعودية، وظل منافحا عن هذا الثالوث، وهو ما يبرز جليا في مؤلفاته.

إن أبرز سمة تشد انتباه القارئ لكتابات محمد العربي التباني هي الأمانة العلمية، والحرص على النقل من مصادر الخصم بدقة شديدة مع الحرص على ذكر العنوان والمصدر، بالإضافة إلى عزو الكلام لصاحبه سواء بالفظ أو بالمعنى، كما أنه لا يتردّد في نسبة الردود إلى أهلها بل وحتى وضعها في عناوين واضحة بالبنط العريض؛ لكن ما يُعاب على الشيخ تهجّمه الشديد على الخصم بألفاظ توحي بشيء من الحقد، ربمّا مصدره الخلفية التاريخية أي دراسته المعمّقة لتاريخ هذه الفرقة وهو ما يتضّح جليا في طيّات الكتاب، أو ربّما أملتْه عليه المعايشة بحكم إقامته وتدريسه في المملكة لمدة لا بأس بها.

مزاوجته بين العقل والنقل، وهو ما يؤكّد تمسّكه الشديد بمالكيّته، فبعد أن يعرض المسألة على ميزان الشرع –قرآنا وسنّة وإجماعا–، ينتقل لعرض القضية على ميزان العقل فيستعين بمصطلحات المناطقة ومناهجهم في النقض والرّد.

الخطر الحشوي الوهابي يكمن في التكفير من جهة، والتعامل الظاهر مع نصوص الشرع، وهو أمر أسال ويسل كثيرا من دماء الأبرياء إلى اليوم، فانطلاقا من تقسيم خاطئ للتوحيد كُفّر المسلمون وعوملوا معاملة المشركين، وبمفهم خاطئ حُرّمت مباحات وحتى مستحبّات.. إن الفهم القاصر لآيات الكتاب العزيز أنتجت عقُولا مُكبّة بسدّ الذرائع ضيّقت على المسلمين أمور دينهم،

ووسّعت دائرة التكفير فتشتّت الأمة شيعا وأحزابا؛ ومواجهة هذا الخطر لن يكون إلا بتوعية الناس وربطهم بالكتاب والسنة والفهم الصحيح لهما.

الاعتماد على ثالوث: العرض ثم المناقشة ثم النقض، مهم جدّا في عرض القضايا الكلامية على العامة من ذوي الباع المحدود في علم الكلام والمنطق، إذ يساعد على تبسيط المعقّد والوصول إلى المطلوب بشكر ميسّر.

5. قائمة المراجع:

1. البغدادي عبد القاهر ، 2009، الفرق بين الفرق، دار الطلائع، القاهرة،.
2. التباني محمد العربي ، 1956، محادثة أهل الأدب بأخبار وأنساب جاهلية العرب، مطبعة حجازي، القاهرة.
3. العسقلاني ابن حجر ، 1349،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دائرة المعارف العثمانية .
4. اللّقّاني، 2004، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت.
5. شترة خير الدين ، 2016، الشيخ محمد العربي التباني ومنهجه في قراءة التاريخ الإسلامي، مجلة دراسات وأبحاث جامعة ويان عاشور، الجلفة، الجزائر.
6. عياض القاضي ، 2013، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مؤسسة جائزة دبي للقرآن الكريم، الإمارات.
7. ميّارة الفاسي أحمد ، 2008 ،الدرّالثمين و المورد المعين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
8. –ابن عساكر ،2013، تبيين كذب المفتري فيما نسب لأبي الحسن الأشعري ، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
9. –التباني أبو حامد بن مرزوق، براءة الأشعريين من عقائد المخالفين.
10. –الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، 2002، المستدرك على الصحيحين ،دار الكتب العلمية، بيروت.

11. بن عبد الله سليمان بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد، المكتب الإسلامي، بيروت.